الأحد: 2024/11/11
التّوقيت: 16:30 – 18:00
القاعة: 32 في الكليّة

المحاضرة رقم 04: فنون النّثر العربي الحديث

الأعلام والمؤلّفات. الجزء الأول

كان النّثر العربي الحديث ما قبل النّهضة مثقلاً بالصّنعة ومقيّداً، يعتمد فيه الكاتب على السّجع والجناس والطّباق والتوريّة على حساب الفكرة، لكن في عصر النّهضة بدأ الكتابة بالاهتمام بالفكرة فاتّسعت مجالات الكتابة وارتبطت بالمجتمع، فبرزت عدّة توجّهات منها التّوجه المحافظ، والتّوجّه المجدّد المعتدل، والتّوجّه المجدّد المتطرّف، كما كنّا قد أسلفنا الذّكر في المحاضرة السّابقة، وهو نفس التّقسيم سنعتمده هنا في هذه المحاضرة في حديثنا عن أهمّ روّاد ومؤلّفات النّص النّثري العربيّ الحديث.

أوّلا: الرّواد المحافظون: ومن أهمّهم

1/ رفاعة رافع الطّهطاوي:

هو المؤسّس الأوّل لنهضة مصر الفكريّة في القرن التّاسع عشر، ولد في مصر، نشأ فيها وتربىّ، وتلقّى مبادئ القراءة والكتابة ثم سرعان ما حفظ القرآن الكريم، وفي عام 1816 التحق بالأزهر الشّريف وتتلمذ على يد الشّيخ حسن العطّار الذي كان يُعدّ من نوابغ العصر في الوعي والثّقافة والتفتّح فاستقى منه رفاعة كثيرا، وعندما بلغ رفاعة الخامسة والعشرين عمل مدرّسا بالأزهر الشّريف.

وفي عام 1826 سنحت له فرصة السّفر إلى باريس، في بعثة علميّة ضمّت أربعين شابّا، وقد لفت رفاعة الطّهطاوي أنظار مدير البعثة السّيد جومار، الذي وجّه رفاعة إلى تعلّم اللّغة الفرنسيّة وترجمة مبادئ العلوم عنه، وقد مكث رفاعة في فرنسا خمسة سنوات استقى فيها الكثير من العلوم والمعارف، وعاد إلى مصر وهو مملوء بالمعاني الجديدة فبدأ في إنشاء المدارس وترجمة الكتب وتبسيط العلوم والمعارف، ونشر الكتب، وتحرير المقالات الصّحفيّة، وقد اكتسبت الصّحافة على يديه تقدّما في فنّ المقالة الصّحفيّة، وتخرّج على يديه جيل المترجمين الأوائل الذين أثروا الحياة الثّقافيّة في مجالي الفكر والعمل.

- أعماله:

1/ إنشاء مدرسة الألسن وتأسيسها عام 1835م.

2/ تحرير جريدة الوقائع المصريّة.

3/ تحرير مجلّة روضة المدارس.

4/ دعوته إلى التّجديد والإيمان بقيّم إنسانيّة جديدة في الفكر والعمل.

5/ تخليص المرأة من ربقة الأوهام والمخاوف والتّقاليد الجائرة، ودفعها إلى الحياة للمشاركة في بنائها.

- مؤلّفاته:

1/ تخليص الإبريز في تلخيص باريز.

2/ مناهج الألباب المصريّة في مباهج الآداب العصريّة.

3/ المرشد الأمين للبنات والبنين.

4/ أنوار توفيق الجليل، في أخبار مصر وتوثيق بني إسماعيل.

5/ نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز.

هذا بالإضافة إلى ما ترجمه من كتب لعلّ من أهمّها:

1- مواقع الأفلاك في وقائع تليماك، الذي ترجمه عن كتاب فيلنون (telemaque de aventures Les)

2- قلائد المفاخر في غريب عوائد الأوائل والأواخر، الذي ترجمه عن كتاب ديبنج (Apercu historique sur les moeurs et usages des nations)

على الرّغم من أنّ رفاعة رافع الطّهطاوي وقع في أخطاء تعبيريّة، فقد غلبت عليه بعض تقاليد السّجع، ولجأ إلى العاميّة أحيانا، ونقل الألفاظ والمصطلحات نقلا حرفيّا من اللّغة الفرنسيّة، وقام بتصريفها واشتقّ منها وكأنّها كلمات عربيّة، إضافة إلى عدم خلوّ أسلوبه من الرّكاكة والاضطراب أحيانا، إلاّ أنّه يُعدّ علما من أعلام النّثر الذين ساهموا في تطويره، وأغناه بالكثير من المصطلحات والمعاني، بل ويُعدّ المؤسّس الأوّل لنهضة مصر الفكريّة في القرن الماضي.

2/ محمد المويلحي:

أديب وناقد وصحفي شيَّد إحدى الدّعامات التي أقامت صرح الأدب العربي في العصر الحديث، وُلِدَ بالقاهرة في أسرة وثيقة الصّلة بالخديوي إسماعيل، وهو ابن الكاتب الصّحفي إبراهيم المويلحي الذي كان له عظيم الأثر في نبوغه الإبداعي؛ حيث أشركه في تحرير مجلّة «مصباح الشّرق» التي كانت من كُبريات الصّحف التي أسهمت في النّهضة الأدبيّة الحديثة في مصر آنذاك.

وقد تلقّى الكاتب تعليمه في مدرسة «أنجال الخديوي إسماعيل»، ثم التحق بالجامع الأزهر، وقد أُلقِيَ القبض عليه أثناء الثّورة العربيّة؛ بسبب توزيعه لعددٍ من المنشورات، ثم حُكِمَ عليه بالإعدام، وقد خُفِفَ الحكم فيما بعدُ إلى النّفي.

رحل محمد المويلحي مع أبيه إلى الأستانة ومكث بها فترةً من الزّمن، حيث أُتيح له أن ينسخ مخطوطاتٍ طُوِيَتْ بين دفاتر النّسيان في الأدب العربي لعدّة أدباء مشهورين أمثال أبي العلاء المعريّ.

عاد إلى مصر ليستأنف نشاطه الصّحفي؛ فنشر عدة مقالات في جريدة المُقَطَّمِ حملت بين طيّاتها العديد من القضايا الوطنيّة، وقد تقرَّب إلى العديد من أعلام عصره أمثال الأميرة نازلي فاضل كما اتّصل بمن حولها من الإصلاحيّين أمثال قاسم أمين.

وقد قدَّم للسّاحة الأدبيّة والفكريّة نفائسَ أفصحت عن أوجُه الإبداع في الأدب العربي منها: «فترة من الزّمان» التي نشرها في جريدة «مصباح الشّرق» وجمعها تحت عنوان «حديث عيسى بن هشام»؛ وهي سلسلة مقالات سار فيها الكاتب على منوال مقامات بديع الزّمان الهمذاني، وتأثّر فيها بوالده إبراهيم المويلحي، وفيلسوف الإسلام جمال الدّين الأفغاني، والإمام محمد عبده.

كما كان من أبرز معالم النّهضة والتّطور في النّثر العربي الحديث ظهور لون جديد في الكتابة المرسلة المتحرّرة من السّجع والصّنعة والبديع. ويعدّ **عبد الرّحمان الجبرتي** من رواد هذا اللّون من النّثر.

3/ عبد الرّحمان الجبرتي:

ولد في القاهرة وهو مؤرّخ مصري عاصر الحملة الفرنسيّة على مصر ووصف تلك الفترة بالتّفصيل في كتابه **«عجائب الآثار في التّراجم والأخبار»** والمعروف اختصاراً بـ **«تاريخ الجبرتي»** والذي يعدّ مرجعاً أساسياً لتلك الفترة الهامّة من الحملة الفرنسيّة.

وكان الابن الوحيد الذي عاش لأبيه، فاهتّم به كثيرًا ودفعه باتّجاه تحصيل العلم؛ فحفظ القرآن الكريم وهو في سنِّ الحادية عشرة، كما كان يحفظ الأحاديث والرّوايات والأخبار التي ترد على ألسنة العلماء الذين كانوا يتردّدون على منزل والده.

وكانت لديه رغبة عارمة للمعرفة والاطّلاع والتّرحال، واتصل بالكثير من علماء عصره، كما جالس عامة النّاس وعرف ما يعانونه، وقد أهَّلته هذه الإحاطة الكبيرة بأخبار البلاد والعباد لأن يكون صاحب معرفة موسوعيّة ونظرة ثاقبة عن عصره؛ ما جعل رؤيته التّاريخيّة تتمتّع بمصداقيّة كبيرة لدى من خلفه من علماء التّاريخ.

وفور جلاء الحملة الفرنسيّة انشغل الجبرتي بكتابة تاريخ مصر، وقد عُرف عنه معارضته لمحمد علي باشا، فقد طلب منه أن يكتب كتابًا في مدحه، ولكن الجبرتي رفض ذلك، وكان من عاقبة ذلك أن قُتل ابنه كما يشير المؤرّخون، فهدَّته الفاجعة، وظلّ يبكي على ابنه حتى فقد بصره، وتوفيّ بعده بثلاث سنوات.

تأثّر بأسلوب الجبرتي جيل جديد من الكتاب واقتفوا إثره، ومن أمثالهم:

4/ ناصيف اليازجي:

هو كاتب وشاعر وأديب لبناني، سليل أسرة «اليازجي» صاحبة المقام عند السّلطان العثماني، والتي أنجبت الكثير من روّاد الأدب والفكر، وُلِد ناصيف بن عبد الله بن جنبلاط بن سعد اليازجي البستاني بقرية «كفر شيما»، هاجرت أسرته من السّاحل اللّبناني إلى مدينة «حمص» في أوائل القرن السّابع عشر، وامتهنوا الكتابة للوُلَاة فأُطلِق عليهم لقب «اليازجي» وتعني الكاتب بالتّركيّة، أمّا والدُه فقد كان كاتبًا لأحد الأمراء الشّهابيين، كما كان طبيبًا مُحِبًّا للأدب واللّغة.

اعتنى والدُه به من صِغَرِه فلقَّنه مفاتيح العلوم، كما أتاح اتِّساعُ ثقافة والده له أن يكون مُطّالعًا على أمّهات الكتب، فأتقن النّحو والصّرف والأدب واللّغة والمنطق، كما اطَّلَع على علوم الطّب والفلسفة والموسيقى والفقه، فكان من الطّبيعي أن يكتب الشّعر والأزجال في صباه.

نتيجة لاتِّساع دائرة الشّعر عنده وهو لم يبلغ بعدُ السّادسةَ عشرةَ ذاع صيتُه ومنحه شهرة أدبيّة مُبكّرة، كما كان لتفوُّقه في الخط العربي وعلمه به عامل كبير في ذلك، حيث استدعاه البطريك «أغناطيوس» ليكتب في ديره، فمكث به سنتين، ثم رجع إلى قريته فما لبث أن استدعاه الأمير «بشير الشّهابي الكبير» حاكم لبنان حيث عيَّنه كاتبًا بديوانه، فتقرّب ناصيف للأمراء بكتابة الشّعر فيهم، فألِفَتْه الأسماع وذاع صيتُه ببلاط الأمراء، فاتّصل بجموع الوزراء والعلماء والأعيان.

بعد أن أُرغمه الأمير الشّهابي على مغادرة لبنان رجع ناصيف إلى بيروت عام ١٨٤٠م، فعمل مُترجمًا للإرساليّات الأمريكيّة، وأتاحت له هذه الوظيفة التقرُّب إلى العلماء الغربيين فترجم الكتاب المُقدَّس، ثُم أصبح عضوًا في الجمعيّة السّوريّة، فعرَفَه العلماء وطلبة العلم وأخذوا ينهلون من علمه، حتى أقدم العلماء الأمريكان على تعيينه في مدارسهم.

عمِل مُدرسًا بالكثير من المدارس اللبنانيّة منها المدرسة الوطنيّة لصاحبها «بطرس البستاني»، والمدرسة البطريركيّة، كما درَّس بالكليّة الإنجيليّة السوريّة، وأثناء ذلك اهتمّ بقضيّة إعادة الأمّة إلى اللّغة

العربيّة وعلومها، فوضع في ذلك الكثير من الشّروح والمُتون لإيصال علوم اللّغة بأسلوب عصريّ، فكانت مؤلَّفاته مصباحًا يضيء الطّريق في أولى خطوات الأمّة نحو النّهضة الأدبيّة.

تَمَيَّزَ بسرعة الحفظ فكان صاحب بداهة وفكاهة، يحفظ القرآن، والكثير من أشعار العرب ومسامراتهم، يعشق الموسيقى والموشحات، مُحافظًا على تقاليد قومه في المأكل والمشرب والقول.

- مؤلّفاته:

ترك ناصيف اليازجي مؤلّفات متعدّدة شملت الصّرف والنّحو والبيان واللّغة والمنطق والطّب والتّاريخ، كما ترك ديواناً شعرياً متنوّع الموضوعات، ومراسلات شعريّة ونثريّة منها:

1/ نار القرى في شرح جوف الفرا في الصّرف والنّحو.

2/ فصل الخطاب في أصول لغة الأعراب وهي رسالة في التّوجيهات النّحويّة.

3/ عقد الجمان في علم البيان.

4/ مجمع البحرين وهو يشتمل على ستين مقامة على غرار مقامات الحريري وبديع الزّمان الهمداني.

5/ ديوان ناصيف اليازجي.

6/ طوق الحمامة.

7/ قطب الصّناعة في أصول المنطق والتّذكرة في أصول المنطق.

8/ الحجر الكريم في الطبّ القديم.

9/ فاكهة الندماء في مراسلات الأدباء.

10/ رسالة تاريخيّة في أحوال لبنان في عهده الإقطاعي.

11/ العرف الطيّب في شرح ديوان أبي الطيّب. هذّبه وأكمله ابنه إبراهيم اليازجي.

يعدّ هؤلاء الرّواد أهم من كتبوا نثرهم وفق السّمات التّقليديّة حيث:

1- لم يتخلّصوا من الصّنعة بشكل كليّ.
2- الميل إلى السّجع على طريقة القدماء.

3- لم يسلم الأداء اللّغوي عندهم من مظاهر الضّعف.
4- لم يسلم الأداء من التّعقيد إلاّ القليل منه.
5- الحرص على الموسيقى اللّفظيّة.

لكن مع ذلك لقد أدخلوا على النّثر العربي بعض السّمات التّجديديّة هي:

1/ صفاء الدّيباجة.

2/ نصاعة اللّفظ.

3/ إحكام النّسج.

4/ أغنوا النّثر بالمصطلحات، وأطلّوا به على حضارة العصر ومكتسباته العقليّة والماديّة.

5/ تيسير اللّغة وتطويعها وإغناء معجمها بمصطلحات الحضارة الحديثة.

6/ تبسيط التّعبير والبعد عن التكلّف والقيود.

7/ إدخال أسلوب العرض المباشر التّقريري الواضح.